(١)

شـــوق ورؤيا صادقة

كان المسلمون ، لاسيما المهاجرون منهم ، يكابدون شوقاً حقيقياً لزيارة مكة ورؤية البيت الحرام والطواف به ، بعد أن حرموا منه نتيجة العداوة التي أظهرتها قريش للإسلام وأهله ، والحرب التي قامت بين الفريقين وما تبعها من ثارات في نفوس قريش وأهل مكة لمن قتل من صناديدهم[١] في المعارك مع المسلمين .

وكان المهاجرون ـ قبل ذلك ـ قد استوحشوا جوَّ المدينة المنورة واستوخموه ، بعد أن أصيب عدد منهم بالحمى ، كان من بينهم أبو بكر وبلال رضي الله عنهما ، فكان النبي ﷺ يحببهم في الصبر وتحمل مشقة الإقامة في المهجر الجديد حتى قال لهم : «لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من

---

(١) جمع صِنديد، وهو السيد الشجاع، والصناديد بفتح الصاد الدواهي. وصناديد قريش: أشرافهم وعظماؤهم ورؤساؤهم، الواحد صِنديد قال ابن الأثير في النهاية وكل عظيم غالبٍ صِنديد جـ ٢، طبعة دار المعرفة، بيروت ٢٠٠١، ص٥٤.

أمتي إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة أو شهيدا»[1] ، وقال لهم ﷺ «ولا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه»[2].

وكانت عائشة قد أخبرت النبي ﷺ أنها دخلت على أبي بكر وبلال فسألتهما عن حالهما فقال لها أبو بكر:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله!

وقال لها بلال:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة بواد ، وحولي إذخر وجليل؟

وهل أردنْ يوم مياه مَجَنَّة وهل يبدون لي شامة وطفيل[3]؟

فقال النبي ﷺ: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها وبارك لنا في صاعها ومُدِّها وانقل حمَّاها واجعلها بالجحفة»[4]. (الجحفة موضع بين مكة والمدينة غير مسكون).

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة الحديث رقم ١٣٧٨، طبعة بيت الأفكار الدولية، عمان ١٩٩٨ .

(٢) رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص الحديث رقم ١٣٦٣.

(٣) شِراكُ النَّعل : سيره الذي يثبَّتُ به على ظهر القدم ؛ ومَجَنَّة : موضع بأسفل مكة على بعد أميال منها كان يقام بها سوق للعرب في الجاهلية، وميمها تكسر وتفتح والفتح أكثر. وشامة وطفيل قيل هما جبلان بنواحي مكة، وقيل عينا ماء بها.

(٤) متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها وهو في البخاري برقم ١٨٨٩ و٣٩٢٦ طبعة دار السلام بالرياض ١٩٩٧، وفي مسلم برقم ١٣٧٦.

وفي الأحاديث الصحيحة عدد من الروايات التي دعا فيها رسول الله ﷺ للمدينة بالبركة ، منها أنه ﷺ كان يقول : « اللهم إن إبراهيم عبدك ونبيك وخليلك ، وإني عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة وأنا أدعوك للمدينة ، بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه »[1].

كان ذلك كله تطييباً لقلوب الصحابة بالإقامة في المدينة والاستقرار في مهجرهم الجديد حتى تقوى قدم الإسلام ويشتد عوده ، ويستقر كيانه الناشئ في المدينة المنورة .

ومن المدينة انطلقت قوة الإسلام تواجه قوى الشرك والطغيان ، مواجهات متكررة ، لم تحسم الموقف العسكري لصالح المسلمين ، ولكنها أرهقت قريشاً وألحقت بها خسائر فادحة وأفقدتها عدداً من سادتها وكبرائها .

وهذه المواجهات ، في الوقت نفسه ، لم تنجح في رد المسلمين عن دينهم ، ولا تفريقهم من حول النبي ﷺ ، أو إخافة الراغبين في الدين الجديد من اتِّباعه أو الهجرة إلى رسول الله ﷺ .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه الحديث رقم ١٣٧٣.

في ظل هذه الظروف القاسية أُريَ رسول الله ﷺ - ورؤيا الأنبياء حق - أنه يدخل مكة المكرمة ، ويعطى مفتاح الكعبة ، ويطوَّفُ بالبيت العتيق ، ويقف بعرفة مع الواقفين ، فاستبشر النبي ﷺ بهذه الرؤيا خيراً كثيراً وبشر به أصحابه وقال لهم إنه أُريَ أنه دخل معهم « مكة آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت ، وأخذ مفتاحه وعرَّف مع المعرفين »[1] (عرَّف أي وقف بعرفة). ففرح الصحابة رضوان الله عليهم بهذه البشارة ، وتهيأت نفوسهم لزيارة مكة المكرمة ، والطواف بالبيت الحرام. وأرسل رسول الله ﷺ إلى من حول المدينة من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه إلى العمرة ، لأنه كان يريد أن يستكثر من الناس لخشيته من قريش وسوء العلاقة معهم أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن المسجد الحرام .

ولكن الأعراب لم يلبوا دعوة النبي ﷺ ، حتى إنه لما مرَّ ببعض الأعراب في طريقه إلى مكة واستنفرهم للخروج معه إلى العمرة تشاغلوا بأموالهم وأهليهم ، وقالوا فيما بينهم : « يريد محمد أن يغزو بنا إلى قوم معدين في الكراع والسلاح (الكراع كناية عن الخيل المجموعة) ، والله

---

(١) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ١٩٩٢، جـ ٥ ص ٥٥.

لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً ، قوم لا سلاح معهم ولا عدد»[1]. وقد فضح الله تبارك وتعالى هذا الاعتذار الكاذب بقوله : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ (الفتح: ١١-١٢)

* * *

(١) السابق ، ص ٥٧.